بين الأدب والتاريخ

مـــدن الحضارات
فى القديم والحديث

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

لكل حضارة قديمة أو حديثة مدينة كبيرة يستقر فيها السلطان ، وتتمثل فيها الأدارة والسياسة ، والصدارة والرياسة ؛ وتتجه إليها الأنظار ، ترى فيها المثل ، وتجد فيها القدوة ، وتأخذ عنها الأساليب . ولقد كتبتُ فى إحدى المجلات الأسبوعية بحثاً عن بعض هذه المدن القديمة ، واليوم أنقل المجال إلى « الرسالة » لقراء ، جاعلاً حديث اليوم عن بيزنطة عاصمة المسيحية الأولى ؛ ودمشق وبغداد العاصمتين الكبيرتين للاسلام

ولقد سميت بيزنطة بعد إنشائها بزمن بالقسطنطينية وخفقت عليها فى عصور متعاقبة : أعلام الوثنية وألوية المسيحية وراية الإسلام . وبقيت إلى اليوم تحت الراية الأخيرة منذ أن فتحها السلطان محمد الفاتح فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى .

أسس هذه المدينة المستعمرون الأولون من الإغريق فى سنة ٦٦٧ قبل الميلاد ، وقد ظلت قرابة ستة قرون ونصف قرن وهى حاضرة كبرى للوثنية . وفى عصر قسطنطين الأول امبراطور الرومان ، انتقلت عاصمة الإمبراطوريات إلى بيزنطة ، التى أسميت من ذلك الحين بالقسطنطينية نسبة إليه . وكان ذلك فى الثلث الأول من القرن الرابع الميلادى .

ولقد أخذ نجمها منذ ذلك اليوم يصعد ويزداد ألقاً فى سماء التاريخ . فأقام فيها قسطنطين كثيراً من المنشآت العامة والمبانى الضخمة ، وشيد (تيودور) حولها سوراً منيعاً جعلها عزيزة المنال بعيدة المطلب ؛ وأصبحت عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وزخرت بالعلماء والحكماء والفلاسفة ، وامتلأت بالمدارس ودور الكتب ، واتسعت رقعتها من يوم إلى يوم بضاحية تمد ، أو دسكرة تبنى ، أو طريق يعبّد .

وظلت القسطنطينية بعد ذلك قرابة عشرة قرون ، توالت عليها خلالها سعود الأيام ونحوسها ، وتتابعت عليها الحظوظ شقيها وسعيدها ، وهى فى ذلك ما بين خفض ورفع وجزر ومد ، إلى أن سقطت فى أيدى الأتراك سنة ١٤٥٣ م ، وأصبحت بانتقال الخلافة الإسلامية من مصر إليها عاصمة الممالك الإسلامية وقبلة الأمم المحمدية تتجه إليها فى الشدة والرخاء . وكان للباب العالى فى تلك الأزمان مقام لا يدانيه مقام ، وسلطان ما بعده سلطان

وتمتاز تلك المدينة بموقعها الفريد على البوسفور ، وامتدادها فى شبه جزيرة على بحر مرمرة ، وإشراف خليج القرن الذهبى عليها من الشمال . كما تمتاز بأسواقها التجارية التى تعد من أبدع أسواق العالم ، وبمجموعة من المساجد الجميلة المبنية على طراز تركى أخذت عنه طائفة من مساجد القاهرة التركية كمسجد محمد على باشا

وأشهر تلك المساجد جامع (أيا صوفيا) ، وقد كان كنيسة قبل الفتح العثمانى ، ولكن قرع النواقيس فيه انقلب إلى تسبيحات المؤذن ، وتهليلات المكبر ، معلنة اسم الله العظيم ، يتجاوب فى آفاق المدينة الساحرة التى طالما فتنت السلطان الفاتح وأخذت عليه تفكيره وخالطت أحلامه وخواطره ؛ حتى تمت له الأمنية وتحققت الأحلام . ودخلها يوم الفتح — كما تقول الروايات التاريخية — حافى القدمين بادى الخشوع ، شاكراً لله على ما وهب ، مصلياً فيها أول صلاة للمغرب

وشاء الله بهذا الفتح أن تصبح المدينة عاصمة الإسلام ، وإذا بالأباطرة العظام يستبدلون بخلفاء أعظم وسلاطين أمنع دولة وأعز صولة . ثم يخاف العلماء والحكماء فيها على مصائرهم ويشفقون على أنفسهم ، ولا يؤمنون المقام تحت ظل الأتراك وفى كنف

أخبار الاجتماعات المختلطة الخاوية ، وأخبار الحفلات التى تخلو من كل ما يهم المصلحة العامة وأن تمتنع عن ذكر كل ما يتناق مع تعاليم الدين وتقاليد البلاد . لعل هذه العقوبة الأدبية ترد الغاوين عن غيهم والمستهترين عن استهتارهم ، فلا يلقى مقلدوهم وأنصارهم أى تشجيع إلى أن تموت بالتدريج كل فكرة فاسدة حتى يتصلح حال المرأة ويحسن ظنها وفهمها لمبادئ قامم أمين فتنفذ آراءه وتعاليمه كما كان يريدها وكما يريدها المصلحون والله أسأل أن يلهمنا التوفيق والسداد .

محمود محمود بسيونى

الحكم الجديد، فيفرون ويهجرون المدينة المسلمة والعاصمة المسلمة ويحملون معهم تعاليم اليونان وثقافة الرومان وينشرونها فى أوربا فتكون طلائع النهضة المباركة والحركة الجديدة التى تعرف فى التاريخ باسم Renaissance

وفى القرن الثامن الميلادى ظهرت فى الشرق العربى المسلم مدينة جديدة ليست فى مضارب الصحراء ومجاهل البيداء كمكة والمدينة ولكنها فى الشام حيث كانت حضارة الفينيقيين تزدهر وتتكاثر على الشاطىء الشرقى لبحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) . تلك المدينة هى (دمشق) حاضرة الدولة الأموية، ومقر الخلافة الإسلامية، ومركز القيادة التى تفرعت منه الحملات وانسابت منه المغازى إلى أقطار بعيدة، وجهات سحيقة لتوسيع رقعة المملكة الإسلامية

ودمشق قبل الإسلام قديمة قدم الدهر، ترجع إلى أيام إبراهيم عليه السلام . فلما دخلها الإسلام غير من حالها وبدل من أمورها . ولما انتقلت إليها الخلافة الأموية، أصبح لها الشأن والمركز والمحل والموضع يفد إليها الشعراء على الخلفاء طلباً للعطاء فيقول جرير :

فإنى قد رأيت على فرضاً زيارتى الخليفة وامتداحى

ويعلل زوجته (أم حزرة) بالغنى بعد رحلته إلى دمشق ووفوده على الخليفة بقوله :

سأمتاح البحور بجنبيتى أداة اللوم وانتظرى امتياحى

وكان معاوية أول خلفاء بنى أمية يسكن غوطة دمشق، وهى — كما يقول جغرافيو العرب — إحدى نزه الدنيا . ومعاوية — على ما زعم الرحالة اليعقوبى — أول من بنى وشيد البناء، وسخر الناس فى بنائه

وكانت أغلب بيوت دمشق فى أول الفتح تبنى من المدر : أى اللبن والطين ؛ ولكنهم عادوا فبنوها بالحجر لما روى أن عمر ابن الخطاب نهى أصحابه بدمشق عن استعمال اللبن فى البناء . وكان للسابقين من الصحابة فى دمشق قصور كثيرة، أو دور عامرة منتشرة فى أنحائها كدار خالد بن الوليد، ودار أبى عبيدة عامر بن الجراح، ودار العباس بن مرداس . ودار عمرو بن العاص وغيرهم ؛ وبنيت كذلك مساجد ملحقة بالبيوت يتجاوب فوق مآذنها التكبير باسم الله الكبير

وإنا لندرك من الأبيات التى قالتها ميسون زوج معاوية الفرق بين بيوت البادية ودور الحضر . فقد أبت هذه السيدة أن تعيش فى قصر معاوية العظيم أو (المنيف) على حد تعبيرها، ورضيت أن تسكن فى كوخ صغير أو بيت من الشعر فى البادية . وقالت فى ذلك أبياتاً معروفة منها :

لبيت تخفق الأرياح فيه أحب إلى من قصر منيف

وكانت دار معاوية بدمشق تسمى الخضراء لقبة خضراء نصبت عليها . بناها بالمدر أولاً فسخر منها جماعة من الروم فأعاد بناءها بالحجر . ومن عجائب الأقدار أن تصبح هذه الدار اليوم فى حى من أحقر أحياء المدينة، وهو حى مصيفة الخضراء

وللأستاذ العالم الجليل عيسى اسكندر المعلوف كتاب كبير مخطوط اسمه « حضارة دمشق وآثارها » ذكر فيه فصلاً عن دور الخلفاء الأمويين فى دمشق، ونشرت خلاصة هذا الفصل فى مجلة (دمشق) الأدبية العلمية التى يحررها جماعة من أهل الفضل والعلم فى القطر الشقيق (جزء خامس . سنة ثانية . عدد شهر آبار سنة ١٩٤١

وكان الوليد بن عبد الملك يحب البناء ويعشق العمارة — والناس على دين ملوكهم — فبنيت فى عهده القصور وشيدت الدور وزيدت فى المساجد زيادات، وأضيفت إليها ملحقات . وسهلت الطرق، وحفرت الترع، ويذكر السيد العلامة الكبير محمد كرد على الدمشقى فى كتابه « خطط الشام » أن الوليد أول من أمر بعمل « بيمارستانات » تعالج فيها المرضى

وإلى الوليد يرجع الفضل فى بناء الجامع الأموى والمسجد الأقصى، ولقد أنفق على بنائه خراج الشام لمدة عامين على إحدى الروايات التاريخية، وأنفق فى سبيل تشييده وزخرفته وتذهيبه ومرمرته (صبغه بالمرمر) وتفصيصه ورفع قبته، وإقامة عمده الكثير من المال، والوافر من الجهد، وفن ريازته (عمارته) ليس إسلامياً محضاً، ولا يونانياً صرفاً ولكنه خليط من هذا وذاك

(الحديث موصول)

محمد عبد الغنى حسن